المبحث الثاني: مصادر معرفتنا بالحضارة المصرية القديمة

لعبت التنقيبات والتحريات الأثرية دوراً مهماً في معرفتنا بالحضارة المصرية القديمة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وقد سبق طور التنقيب الذي قام به العلماء طوراً تعرّف فيه الغرب على آثار مصر من خلال هواة الآثار وسراقها والسياح فانتقلت الى الغرب اهم الآثار المصرية منذ فترة حكم العهود اليونانية والرومانية حيث سعى كثير من أباطرة الرومان على نقل المسلات الفرعونية الى روما وغيرها من المدن الايطالية ، وصاحب التنقيب عن الآثار المصرية البحوث العلمية في دراستها وفهمها ، منها جهود حل رموز الخط الهيروغليفي فنشأت في مصر طرق البحث العلمي قبل مواطن الحضارات الأخرى في الشرق ، ومن أسباب ذلك طبيعة الآثار المصرية التي بقيت سالمة محفوظة وشاخصة كالمسلات والاهرام والمعابد الكبيرة والتوابيت واوراق البردي ، كما كان لمناخ مصر الجاف دور في الحفاظ على الآثار فيها .

ومن أوائل الباحثين في الآثار المصرية القديمة العالم الآثاري شامبليون الذي شرع في فك رموز الخط الهيروغليفي عام 1822م والمنقب فلندرز بتري الذي يُعد مؤسس طريق البحث العلمي ولا سيما في ناحية ضبط الأدوار الآثارية ، هذا من الممكن تقسيم مصادر تأريخ مصر القديمة الى ما يلي :

1. حجر بالرمو : يعتبر هذا الحجر من المصادر الاصلية التي دونها المصريون القدامى عن ملوكهم وهو عبارة عن ثبت باسماء الملوك منقوش على الحجر الذي يعود الى حدود (2700 ق.م) ، ويتألف من ستة قطع من حجر الديواريت الأسود أكبرها بعرض قدم واحد وارتفاع (17) انج محفوظة حالياً في متحف بالرمو في جزيرة صقلية ، والأربع قطع الأخرى منه محفوظة الآن في متحف القاهرة . ويعتقد إن هذا الحجر كان في الأصل طوله مترين مدّون من على وجهين ومحفوظ بأحد المعابد في العاصمة منفس . ووجها الحجر مقسمة افقياً الى صفين والكتابة كانت مدّونة بشكل عامودي وتحمل اسماء (140) ملك من حكام ملوك مصر مبتدءاً بعصور ما قبل السلالات واسم كل ملك كان مقروناً باسم أمه وتحته ارتفاع نهر النيل كل سنة .

إن هذه القطع الحجرية العائدة لهذا الثبت من الصعب القول ان جميعها تعود له لاختلاف أسلوب الكتابة وسمك القطع فهي لابد أنها تعود إلى أكثر من ثبت واحد وليس بالرمو فقط . وتشير المنحوتات البارزة على وجه هذا الثبت الى توحيد شطري مصر العليا والسفلى قبل عصر السلالات .

2. بردية تورين : وجدت هذه البردية مدوّنة بالخط الهيراطيقي وتُعرف بهذا الاسم نسبة إلى مكان حفظها في مدينة تورينو في ايطاليا ، ويرجع زمن تدوينها الى عهد الملك رعمسيس الثاني (1290-1224 ق.م) وتتضمن بحالتها الكاملة اسماء حوالي (300) ملك مع اطوال حكمهم بالسنين والأشهر والأيام ابتداءاً من حكم الآلهة رع ، فتاح ، اوزيرس وحورس ثم المخلدون وانصاف الآلهة اتباع الآله حورس حيث اعطيت لهؤلاء ارقام خيالية في الحكم (ما يقارب 22 الف سنة) ثم يأتي بعد ذلك ملوك منفس واون ثم الملك مينا وتنتهي بنهاية حكم الهكسوس ، ومن ميزات هذه البردية انه في نهاية كل سلالة حاكمة تم جمع اسماء ملوكها وفترات حكمهم . إن هذه البردية بحالة غير جيدة فقد اصابها التلف لذلك من الصعوبة قراءة اسماء الكثير من الملوك المدّونين عليها إضافة إلى انه يبدو ان قسم من معلوماتها مستقاة من مصادر اخرى ولكن إذا ما قورنت هذه البردية مع المصادر الأخرى تظهر انها أكثر دقة من غيرها على الرغم من الاخطاء الموجودة فيها .

3. أثبات الكرنك وأبيدوس وصقّارة : أمر بتدوين (ثبت الكرنك) الذي عُثر عليه في معبد الكرنك في مدينة الأقصر الملك تحوتمس الثالث (1490-1436ق.م) وهو حالياً محفوظ في متحف اللوفر بباريس .

يحتوي هذا الثبت على أسماء (61) ملك تتضمن اسماء ملوك السلالات (10-12) و (13-14) ، ومن عيوب هذا الثبت عدم ترتيب الملوك حسب تسلسلهم الزمني اضافة الى عدم ذكر ملوك العصرين الانتقاليين الأول والثاني أي الفترة المظلمة الاولى والفترة المظلمة الثانية أما (ثبت أبيدوس) المسمى (لوحة الأجداد) والمحفوظ اليوم في المتحف البريطاني فهو مدوّن زمن الملك سيتي الأول (1303-1290 ق.م) من السلالة 19 وكان قد وضع في معبد ابيدوس لكي تُقدم القرابين للملوك المدّونين عليه ، ويبلغ مجموع اسماء هؤلاء الملوك (76) ملك موزعة على السلالات : الأولى بواقع (8) والثانية بواقع (7) ثم السلالة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وملكين فقط من السلالة الحادية عشر. ومن عيوب هذا الثبت انه اغفل ذكر ملوك السلالتين التاسعة والعاشرة من مدينة اهناسية كما انه لم يُشر إلى ملوك الهكسوس وكذلك الملكة حت- شبسوت والفرعون توت-عنخ- آمون .

وهناك (ثبت سقارة) المدّون من زمن مقارب (لثبت أبيدوس) وقد عثر عليه في مقبرة الكاهن (تون- ري) من زمن الملك رعمسيس الثاني ، وقد حوي الثبت على اسماء (58) ملك ، أما عيوبه فهي انه لم يذكر اسماء ملوك السلالات (7- 10) وملوك الهكسوس و اخناتون و حت- شبسوت كما انه لم يراعي التسلسل التأريخي لكثير من الأسر المالكة .

4. قوائم الأنساب : تبرز أهمية هذه القوائم في تعرضها الى أسماء الملوك الذين عاصرهم أسلاف صاحب القائمة منها عائلة نسب الكاهن (عنخف أن سخمت) من السلالة (21) ذكر فيها (60) جداً من أجداده دوّن أمام غالبيتهم أسماء الملوك الذين عاصروهم وقد عاد باجداده الى السلالة الحادية عشر . وتحتوي القائمة على فجوات واخطاء في مواضع عديدة .

5. الحوليات : وتتضمن كتابات الملوك المصريين القدماء ابتداءاً من الملك العقرب الذي يعود الى السلالة الاولى وتظهر كتاباته على نصب مصوّر عليه رسوم طيور واقواس عددها (9) تمثل رموز قبائل وادي النيل ثم صور الملك العقرب ونهر النيل ، أما الملك نعرمر فيظهر على لوح آخر يصور انتصاره على قبائل الشمال وعلى رأسه تاجي مصر العليا والسفلى رمزاً للوحدة السياسية يحيط به عدد من الرجال يبدو انه يتسلم الأسرى منهم .

وكذلك هناك حوليات الملك ببي الأول وهي تتضمن حملاته في آسيا. أما حوليات عهد الإمبراطورية فهي أطول وأهم الكتابات المصرية القديمة والغرض منها تعظيم شخص الملك ، ونلاحظ اجتهاد الناسخ الذي كتب هذه الحوليات في التقليل من مدح اسلاف الملك حتى لا يفسر ذلك انتقاصاً من منجزاته وانتصاراته ، وتذكر الحوليات بطولات الملك في الحرب والصيد والرياضة واعمال البناء والابحار وهي تحوي مبالغات وتشويهات للحقائق أحيانا ، ومن هذه الحوليات تلك العائدة للملك تحوتمس الثالث التي تخلد انتصاراته في (معركة مجدو) وحوليات الملك رعمسيس الثاني في (قادش) .

6. الأساطير والملاحم والقصص : وصلت إلينا الكثير من الأساطير والملاحم وهي تتعلق بقصة الخليقة كخلق الإله اتوم وخلق الإله بتاح للكون وخلق الإله توت للطبيعة وكذلك أسطورة (صيد التنين) و أسطورة (ايزيس واوزيرس) وغيرها من الأساطير التي لها أهمية كبيرة في معرفة جوانب الفكر المصري القديم ونظرياتهم في الخلق ومشاكله .

7. النصوص الدينية : وتأتي في مقدمتها (نصوص الأهرام) من عهد المملكة القديمة و (نصوص التوابيت) من عهد المملكة الوسطى و (كتاب الأموات) من عهد المملكة الحديثة ، ومن النصوص الدينية ماهو مدوّن في المقابر مثل النص المعروف بـ (مستقبل الميت الطيب) من قبر (نفرحوتب) في مدينة طيبة ثم نصوص الاعترافات والطقوس والتعاويذ منها طقس تقديم طعام المتوفى وطقوس المعبد اليومية ، وهناك نصوص تتضمن تعاويذ ضد الافاعي والعقارب ونصوص لعن اعداء التاج المصري ، وتدخل مع النصوص الدينية نصوص المراسيم والمناسبات الدينية والتراتيل والأدعية .

8. الآثار الشاخصة : إن الآثار المصرية القديمة بقيت سالمة محفوظة لما لمناخ مصر الجاف من اثر كبير في المحافظة عليها ، مما جعل عمل المنقبين مضموناً في عثورهم على الآثار القيمة ، إضافة إلى ما بقي منها شاخصاً كالمسلات والأهرام والمعابد والقبور الكبيرة والألواح والمومياءات والعاجيات وانواع الآثاث والأدوات.... الخ .

9. مانيثو : وقد كان كبير الكهنة في معبد هليوبولس في مصر دوّن تأريخ بلاده في كتاب بثلاثة اجزاء مدوّن باللغة اليونانية وقدّمه هدية إلى الملك بطليموس الثاني في القرن الثالث ق.م ، وقد يكون الملك هو الذي كلفه بذلك من اجل الاطلاع على تأريخ مصر القديم . وقد تتبع مانيثو هذا التأريخ منذ أقدم العصور وحتى وفاة الاسكندر المقدوني عام (323ق.م) . قسّم مانيثو تأريخ مصر إلى(31)سلالة حاكمة موزّعة على ثلاثة عصور توازي الممالك القديمة والوسطى والحديثة ووضع اسماء الالهة المصرية بما يقابلها في المجمع الالهي اليوناني ، وهناك مواضيع ذكرها مانيثو تماثل ما مدّون على (بردية تورين) مما جعل البعض يعتقد انه قد اعتمد على هذه البردية في معلوماته ، وفي حقيقة الأمر يبدو انه قد جمع تلك المعلومات من الكتابات التي كانت محفوظة في المعابد المصرية آنذاك . ومما يؤسف له إن هذه الكتاب قد فقد اثناء حريق مكتبة الاسكندرية الثاني ولكن وجدت شذرات منه في كتب المؤلفين الأخرين أمثال يوسفيوس و يوليوس وغيرهم .

10. كتابات اليونان والرومان : أو التي يطلق عليها (المصادر الكلاسيكية) وهي كتابات رحّالة قدموا إلى مصر ودونوا ما سمعوه في محدثيهم ومرافقيهم من المصريين الذين قد يكونوا من الجهلة المحدودي المعرفة ، حيث جاءت كتاباتهم مشحونة بالأخطاء لذا يلزم ان تؤخذ هذه الكتابات بشيء من الحيطة والحذر ، وربما تكون الاوذيسة المنسوبة إلى هوميروس هي أول كتابة باليونانية تذكر مصر ، ومن الذين زارو مصر هكتيوس الذي ذكر انه ركب نهر النيل حتى طيبة وكتب عن طائر العنقاء الخرافي وفرس النهر وطرق المصريين في صيد السمك واخطأ في تعليله فيضان نهر النيل الذي نسبه للماء القادم من المحيط الذي يحيط بالأرض ، ثم زار مصر هيرودوتس الملقب بـ(أبو التاريخ) سنة 445 ق.م وركب نهر النيل ووصل به الى جزيرة (الأنس) والظاهر على معلوماته انها مليئة بالأخطاء على الرغم من اعجابه بحضارة مصر . ثم زارها ايفوروس الذي أقتصر في رحلته على المنطقة الساحلية ، ثم جاء أريانوس الذي زار (مصر العليا) وواحة سيوه ، وبعده جاء ديودورس الصقلي في (60-57ق.م) والذي وصف حدود مصر الطبيعية ، ثم زارها سترابو الذي أقام في الاسكندرية وتنقل بمصر وجاءت كتاباته متصفة بالدقة مقارنة مع الآخرين . كما زارها بلوتارخ وإيليان ويوسفيوس وغيرهم .

11. مصادر أخرى : وتشمل نصب الافراد التذكارية كالموظفين الكبار في الدولة وكتابات القبور التي تشرح أعمال المتوفى وتكشف عن الاحوال العامة في ذلك الزمن وكذلك بعثات التعدين ( إلى سيناء مثلا ) والمعاهدات والوثائق الشرعية كالمعاهدة المصرية الحثية زمن الفرعون رعمسيس الثاني ومراسيم تعيين الوزراء وكذلك نصوص تعود لادب الحكمة والامثال وشعر الغناء والرسائل وخاصة (رسائل العمارنة) المدوّنة باللغة الأكدية وبالخط المسماري والتي تعود لزمن الملك أمنحوتب الثالث (1411-1370 ق.م) وخليفته الملك اخناتون (1370-1353ق.م) وكذلك هناك نصوص أخرى منها ما يتعلق بتفسير الاحلام ثم نصوص الفأل والتنبؤ ومقالات ونصوص علمية وجميعها كانت مدوّنة على أوراق البردي والتي سميت بالوقت الحاضر بأسماء مكتشفيها أو أماكن حفظها الحالية . إضافة إلى هذه المصادر هناك ما هو مدوّن عن مصر وحضارتها من المدونات الأجنبية المعاصرة للحضارة المصرية ، فقد وردت اخبار مصر القديمة في النصوص المسمارية العراقية القديمة من بابلية وآشورية ولدى الحيثيين والفينيقيين واليونان والرومان .